

# الصور الأخلاقية للابروير

بمقدم  
الدكتور محمد غنيمي هلال

أستاذ مساعد بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الرومانتيكي «ميشليه» قائلا : ( في مقدمة الجزء الخامس عشر من كتابه : تاريخ فرنسا ) : « لويس الرابع عشر يثد عالماً . فهو - مثل قصره فرساي - يطل على الغروب ... الكآبة تسيطر على كل شيء ، على المؤلفات والخواطر الخلقية فيما كان يكتبه كبار الكتاب مثل پاسكال ، وراسين ، وفينلون ، ولابروير ... أما ما كان يجهر به خطيب القوم : بوسويه ، من ضمان شامل ، فانه لم يمنع العصر من أن يشعر باستهلاك كل قواه في المسائل العتيقة » .

وقد أخذت نتائج تلك السياسة الاستبدادية تظهر متوالية منذ حوالى عام ١٦٧٨ ، في صورة أزمة سياسية في الداخل والخارج ، وأزمات دينية وخلقية وأدبية ، ثم ثورة فكرية فلسفية في أواخر العصر .

أما الأزمة السياسية فكانت وليدة غرور الملك وأطماعه في صراعه ضد هولندا وألمانيا ومع إنجلترا ، في حروب دامت قرابة ثمانى سنوات تخللتها انتصارات موقوته ، مع تكاليف وعقبات وهزائم طالما عانى منها الشعب . وزادت هذه الأزمة الشعب سخطاً ، واشتدت

يعد الكاتب لابروير - صاحب فن الصورة الأخلاقية في الأدب الفرنسى - ثمرة من أنضج ثمرات عصره فكراً وثقافة ، ولكن خاصته التى انفرد بها أنه كان أكبر شاهد على عصره وأعمق ناقد له . آثر عشرة الكتب على مخالطة الناس ، ولكنه كان فى عزله أوثق صلة بعصره وبآفات عصره من جميع معاصريه ، يصف هذه الآفات فى صور وأمثال تبين عن مزاج حاد ساخر ، ولكن فى غير استهتار ؛ وتكشف عن فكر نافذ يبلغ - فى سخطه وضيقه - أبعد مدى للإصلاح حتى ليتأخم حد الثورة ، على الرغم من سيطرة النزعة المحافظة على عصره كله ، وحتى ليذهب فى جرأته إلى حدود الحملة التى لا هوادة فيها على التقاليد والآفات الطبقيّة التى كان لها شبه قداسة فيما كانوا يسمونه : العصر الذهبى أو « القرن العظيم » ، عصر لويس الرابع عشر ( ١٦٤٣ - ١٧١٥ ) - وحقاً كان ذلك العصر عظيماً فى مظهره ، ولكنه كان يخفى خلف هذا المظهر الخادع آيات انحلال لازمت الدكتاتورية وعهود السلطان المظلم ، على نحو ما يصف المؤرخ الفرنسى

المصاعب المادية ، فسيطر سلطان المال على المجتمع ، وتدهورت تبعاً لذلك القيم الخلقية السليمة ، وازدادت حال الفلاحين سوءاً ، بقدر ما عظمت مكانة نبلاء الثياب ومشترى الألقاب من طبقة الأغنياء . وفي ذلك كتب « فينلون » رسالته إلى لويس الرابع عشر في ١٤ مايو عام ١٦٩٣ ، ثم كتب قصته الملحمية : « مغامرات تليماك » ، وقد ظهر الكتاب الأخير في طبعته الأولى عام ١٦٩٩ ، وبين سطورهِ آراء الكاتب في الإصلاح الملح للنظم السياسية والتربوية ، كما كتب الباحث الاقتصادي بواجبير Boisguillebert في أسباب بؤس البلاد والمخرج منها ، عام (١٧٩٧) .

وأدى الدجل الديني ، والتعبير الزائف في القصر والحاشية ، إلى صراع طائفي ديني ، ثم إلى موجة إلحاد . وساعدت على ذلك البلبلة العامة التي تنتشر عادة في سني الحرب . وقد قاوم بوسويه بعض الحملات الإلحادية التي شنها من تعرضوا لتأويلات نصوص الإنجيل ، ولبس هذا الإلحاد ثوباً فلسفياً في مؤلفات أمثال « بيسل » Bayle الفرنسي في هولاندا ، فظهر قاموسه النقدي الفلسفي الكبير عام ١٦٩٧ ، كما وجد « سانت إفرمون » - في نادى « دوقه مازارين » في لندن - مؤثلاً غذى به المتمردون على الدين المسيحي ممن كانوا يغشون ذلك النادى . وانتصرت فلسفة ديكارت ، وتوسع أنصارها في تأويلاتها ضد الدين ، على الرغم من حظر السلطات ، ومن مقاومة أساتذة السوربون . وكانت هذه الحركة الإلحادية بمثابة تمهيد للتمرد الرومانتيكى في القرن التالى .

وفي مجال الأدب كانت الكلاسيكية تحتضر . فأخذ سلطان القدماء يتزلزل ، ودعا كثير من الكتاب والنقاد إلى التحرر من سيطرة الإغريق والرومان . وقامت

المعركة الشهيرة بين أنصار القدماء والمحدثين . ومن أكبر المدافعين عن المحدثين « شارل بيرو » في كتابه : « الموازنة بين القدماء والمحدثين » ( ١٦٨٧ ) - وقد انتصر للقدماء صفوة ممن أنجبهم العصر ، مثل لافونتين ، وبوالو ، ولابروير ؛ ولكن الصراع أسفر - لدى أنصار القدماء أنفسهم - عن اعتدال واضح في الدعوة إلى محاذاة الأقدمين ، كما أدى إلى التبصر والحذر في شرح نظرية المحاكاة ، مما سنتعرض لبعضه فيما يخص مؤلفنا وكتابه فيما بعد .

وكتاب « الصور الأخلاقية » للابروير يشهد بأن مؤلفه قد تعمق هذه الأحداث ، وعاش فيها بقلب فنان مرهف الحس ، وعقل مفكر لا يكتب إلا ما يؤمن به ، وثقافة ناقد لا يعرف هوادة في الحق حين يصور خبايا عصره ونقائصه التي مهدت لما أشرنا إليه من أزمات أو صاحبها . فلم يغتر لابروير بمظهر العظمة الخادع لعصره ، بل نفذ إلى ما وراءه في صور تحمل طابع الهجاء الاجتماعى البناء ، وهذا الهجاء ذو دلالة إنسانية مطلقة من ثنايا التصوير الدقيق لدخائل الطبائع البشرية وسوء النظم الاجتماعية .

وقد أودع كتابه هذا خلاصة نفسه ، وجعل منه معيناً لا ينضب في تصوير أطواء العصر وأدوائه . وعلى هذا الكتاب يجب أن يعتمد الباحث إذا أراد معرفة مؤلفه وعصره ، إلى ما لهذا الكتاب بعد ذلك من قيمة فنية وإنسانية .

وقد احتفظ التاريخ بقليل من المعارف عن حياة لابروير الخاصة ونشأته . يقول سانت بوف : « لا نعرف شيئاً ، أو نكاد لا نعرف شيئاً ، عن حياة لابروير . ويضيف هذا الغموض - كما لحظ الباحثون - إلى جلال عمله الأدبي ، بل يمكن أن يقال إن هذا

الغموض ليضعف من أثر ما كان لصاحبه من خلاق ومصير أليم . فإذا لم يبق سطر واحد في كتابه الفريد — منذ اللحظة الأولى من نشره — إلا أضفى على عصره جلاء الوضوح ، فليس لدينا مع ذلك من تفصيل خاص بحياة المؤلف نعرفه حق المعرفة . وتغمر شعاعات العصر كلها جوانب صفحات الكتاب جميعاً ، على حين يبقى خبيثاً وجه الرجل الذي بسطه بيديه .

ولهذا سنعتمد على استخلاص واقع حياته من كتابه أولاً ، إلى جانب المعلومات المتفرقة الضئيلة التي أبقى عليها التاريخ من حياته الخاصة .

ولا شك أن الحادثة الفاصلة الأكيدة في حياته هي اختياره في منزل أسرة « كوندية » مريباً لدوق بوربون عام ١٦٨٤ . وقد شطرت هذه الحادثة حياته شطرين : الأول يمتد حتى سن الأربعين ، وهو أطول ، ومعرفتنا به أشد غموضاً ، والثاني أقصر ، ولكنه أحفل أثراً وأوضح معالم .

وعلى حسب بحوث حديثة طويلة التحقيق ، قام بها المؤرخون بعد عصر سانت بوف ، أصبح محققاً أن مؤلفنا — « يوحنا دي لابروير » — ولد في باريس عام ١٦٤٥ ، وتاريخ شهادة تعميده يرجع إلى ١٧ من أغسطس ، في كنيسة سان كريستوف . وأبوه لويس دي لابروير من البرجوازية الصغيرة ، كان يشغل وظيفة كبير مفتشى الضرائب ببلدية باريس ، وأمه إليزابث هامونين ابنة أحد وكلاء الدعاوى القضائية في شاتليه . وكان يعيش الوالدان مع أولادهما الثمانية — ومنهم يوحنا دي لابروير — عيشة ضئيلة من استثمار رأس مال قيمته اثنا عشر ألف فرنك — أو « جنيه » كما كان يسمى الفرنك حينذاك — إلى جانب دخل وظيفة الأب . ويساعدهم عم لابروير الأعزب

الذي يسمى : يوحنا ، وكان يسكن معهم . وإذن ينتمي لابروير في نشأته إلى أسرة برجوازية صغيرة ، وقد نمت هذه النشأة فيه روح الهجاء الناشئ عن الطموح المكبوت وسط مجتمع طبقي .

وأما عن تربيته الأولى فعرفتنا بها جد ضئيلة . ويؤكد معاصره الأب « أدري » ( في مخطوطة عن كتاب مدارس جمعية الأورتوار في المكتبة الأهلية في باريس ) أنه تربى في مدارس تلك الجمعية ذات الطابع الديني ، وكانت تعني مع ذلك بتعليم اللاتينية واليونانية . على أن إتقان لابروير لليونانية كان مشكوكاً فيه على حسب البحوث الدقيقة المعاصرة . ومن العجيب أن أعداء لابروير المعاصرين له لم يحملوا عليه من هذه الناحية ، ولم يشككوا في قيمة ترجمته لتيوفراست ، ولكن منذ عام ١٧٤٠ بدأ الشك يحوم حول قيمة هذه الترجمة من حيث دقتها . وفي مقدمة ترجمة تيوفراست الدقيقة — طبعة جيوم بوديه — قد أكد مترجمها المعاصر الأستاذ « نافار » أن ترجمة لابروير لها كانت هينة القيمة ، لا دقة فيها . وتصدى تلميذ من تلامذة « نافار » هو « كازيل » لحل المسألة ( في مجلة الدراسات الإغريقية عام ١٩٢٢ ) فين — بحجج قوية لا تدفع — أن تخمس لابروير لتيوفراست كان ادعاء لا دعوة ، وأن لابروير لم يرجع إلى الأصل اليوناني إلا تبعاً لاعتماده أولاً وآخرأ على ترجمة تيوفراست اللاتينية التي قام بها « كازوبون » دون أن يشير أدنى إشارة إلى مرجعه اللاتيني الذي اعتمد عليه كل الاعتماد<sup>(١)</sup> .

ومن الغريب أن لابروير كان يعرف الألمانية ، أمر نادر في ذلك العصر . وهو ينصح — في كتابه الذي

(١) — لا يهتنا التفصيل هنا في هذه المسألة الأكاديمية ، ولكننا نرى أن الإشارة إليها بالغة الأهمية .

نعرضه - بتعلم اللغات في عهد الطفولة ، على سواء ، دون تأجيلها إلى عهد الشباب أو ما بعده ، ويسوى لابروير في ذلك بين جميع اللغات ، لا فرق بين قدمها وحديثها ، ليدرس منها الناشئ أكبر قدر يستطيعه ( انظر كتاب الصور الأخلاقية ، الفصل الرابع عشر فقرة رقم ٧١ ) . ولا بروير في ذلك ذو نظرة في التربية لا زالت حديثة .

و درس لابروير الحقوق في باريس ، واضطر إلى مناقشة رسالته في جامعة أورليان عام ١٦٦٥ ، وكان عنوان تلك الرسالة : « الوصايا والهبات » . وإنما اضطر إلى مناقشتها في تلك الجامعة لأن القانون المدني لم يكن يدرس آنذاك إلا في تلك الجامعة وفي جامعة پواتييه . وما لبث لابروير أن فقد والده عقب عودته من أورليان إلى باريس عام ١٦٦٦ ، فكان عمه الوصي على الأسرة ، على حين صرف هو همه إلى البحث عن وظيفة له . فحصل أولاً على لقب محام للمرافعات أمام القضاء العالي في باريس . وليس لدينا من دليل ، ولا شبهة دليل ، على أنه مارس مهنة المحاماة ، على الرغم من أنه نص في كتابه على إكباره لتلك المهنة قائلاً : « مهنة المحاماة عسيرة مجاهدة ، وتفترض فيمن مارسها خصوبة التكوين وقوة الوسائل ، فليس يكتفى من صاحبها بما يكتفى به من الواعظ الذي ينطق ببعض الخطب يؤلفها في وقت فراغ ، ويسردها من الذاكرة ، في تسلط المسيطر وفي غيبة المناقض ، ويغيرها تغييراً طفيفاً ليحظى بشهرة إلقائها أكثر من مرة ؛ على حين يفوه المحامي بمرافعات خطيرة ، أمام قضاة يمكنهم أن يرفضوا عليه الصمت ، وضد خصوم يقاطعونه ، فيجب أن يكون على استعداد للإجابة . . . ويظهر من ذلك أن الخطابة أيسر من المرافعة ، ولكن الخطابة

الجيدة أشق . من المرافعة الجيدة (١) » ( انظر الفصل الخامس عشر ، الفقرة رقم ٢٦ ) .

ونستطيع أن نهتدى إلى سر مقبته لممارسة هذه المهنة - مهنة المحاماة - بعد حصوله على وظيفته فيها ، ذلك أنه كان يكره إجراءات القضاء لأنها لا تزيد سوى نفور من وحشية طبائع المعتدين والمستغلين الذين أنف أن يختلط بالمجتمع من أجلهم . يقول هو : « لا يسمع في الميادين وشوارع المدن الكبرى ، وعلى ألسنة المارة فيها ، سوى كلمات الاستغلال والاستيلاء ، والاستجواب والاعتراف ، والمرافعة ضد الاعتراف . أقلن يكون في العالم أقل قدر من الإنصاف ؟ أو هل يظل على النقيض مليئاً بأناس يتطلبون في جرأة ما ليس لهم فيه حق أو يرفضون في صراحة ما يدنون به ؟ وثائق تخرج لتذكير الناس أو إقناعهم بما وعدوا به ! ! ! يا لعار الإنسانية ! ! ! » ( كتاب الصور الأخلاقية الفصل الحادي عشر ، فقرة رقم ٢٧ - انظر أيضاً ما يفهم منه نفور لابروير من المحاماة في الفصل السابع فقرة رقم ٢١ ) - ويأسى لابروير كذلك أن تكون القاعدة في القضاء محوراً للصورة المكتوبة بين المتنازعين : ( يقولون : حقاً هذا المبلغ من المال له ، وهذا الحق مكتسب له . ولكنه متعلق بهذا الإيصال الصغير ذي المظهر الشكلي ، فإذا نسيه صاحبه فلن يستطيع أن يرجع به على خصمه ، ونتيجة لذلك يفقد مبلغه من المال ، وبذلك يتجرد قطعاً من حقه ، وإذن سينسى هذا الإجراء الشكلي » وهذا ما أسميه ضمير

(١) يقصد لابروير أن القدرة على اجتذاب الجمهور بكلام مبتذل مكرور في الخطابة أشق كثيراً من مناقشات المرافعة التي تتكرر دون انقطاع ، ولكنها غير عملة لارتباطها بواقع الأحداث ، متى وقعت موقفاً من بداهة المحامي وقوته .

المترافع ورجال القضاء - القاعدة الجميلة في نظري  
القضاء ، والنافعة للجمهور ، والحافلة بالعقل والحكمة  
والإنصاف ، قد تكون مناقضة تماماً للقاعدة التي تقول  
بأن المظهر يجب أن يتضمن الجوهر . ( نفس المرجع ،  
الفصل الرابع عشر ، فقرة رقم ٥٠ ) - ولا شك أن  
الفكرة الأخيرة للابروير مزعومة ، ولا يستطيع فهمها  
إلا بالجمع بينها وبين الفكرة السابقة عليها من ضيق  
لابروير بنقص الطبائع الإنسانية ، مما يلجئ القضاء  
إلى التمسك بنصوص شكلية في الوثائق ، وإلى تعليق  
الحقوق بالاحتفاظ بتلك الوثائق ، ولكن الفقرتين  
السابقتين تدلان قطعاً على أن لابروير لم يخلق لمهنة  
المحاماة المتصلة بالقضاء ورجاله .

وقد آلت إليه بعض ثروة عمه حين مات عام  
١٦٧١ ، فاشترى في عام ١٦٧٣ وظيفة وكيل مالى  
لتقدير الضرائب وجبايتها في مقاطعة « كان » Caen  
على بعد ٢٢٤ كيلو متراً غرب باريس ، ولكنه لم يترك  
مع ذلك باريس ، على الرغم من أن القوانين كانت  
تحم عليه أن يقيم في محل عمله . واستمر يأخذ مرتبه  
السنى وقدره ٢٣٥٠ فرنكاً ، دون أن يمارس وظيفته  
تلك التي لم يتخَلَّ عنها إلا عام ١٦٨٦ . وظل في باريس  
يحيا حياة المتعطل ، ولكنه تعطل الحكماء . فكان يتردد  
على حديقة الكسمبورج وحدائق التويلرى ، يتأمل  
ويدون ملحوظاته ، كما يصفه أحد معاصريه وزميله  
في المحاماة : « فنيول مارثيل » ؛ وكما يتحدث هو عن  
نفسه في كتابه قائلاً : « يحتاج المرء في فرنسا إلى كثير  
من الصلابة ، وإلى سعة في الفكر ، حتى يدع جانباً  
الوظائف والتقييد بالأعمال الموقوتة ، ليطيب نفساً بالبقاء  
في منزله ، لا يشغل بشيء . ولا يكاد يتوافر لامرئ من  
الكفاية ما يلعب به هذا الدور عن جدارة ، ولا من

نقاء الطوية ما يملأ به فراغ الوقت بدون ما يسمى  
الدهماء : أعمالاً ؛ على أنه لا يعوز تعطل العاقل إلا  
تسمية هذا التعطل باسم أفضل ، ذلك بأن يسمى التأمل  
والكلام والقراءة والهدوء أعمالاً » ( نفس المرجع -  
الفصل الثاني ، فقرة رقم ١٢ ) - ويقول كذلك في  
موضع آخر - ويقصد نفسه بما يقول - : ( يسألك  
الحمقى ورجال الفكر على سواء : بم تتلهى ؟ وفيم  
تمضي وقتك ؟ فإذا أجبت قائلاً : إنى أفتح عيني  
لأرى ، وأعير أذنى لأسمع ، وأحتفظ بصحتي وراحتي  
وحريتي ، كان جوابي لديهم لا معنى له . فالخير  
الأكيد ، والخير العظيم ، والخير الوحيد لا حساب  
له ولا شعور به : « أو تقامر ؟ أو تشهد حفلات الرقص  
المقنعة ؟ » هذا ما يقولون . وعليك أن تستجيب ) :  
( نفس المرجع الفصل الثاني عشر ، فقرة رقم ١٠٤ )  
ويرجح أنه بدأ في تدوين ملحوظاته التي كانت نواة  
كتابه في تلك الفترة من حياته . ويحملنا منطق الأحداث  
على الاعتقاد بأن هذه التأملات كانت مقصورة أولاً  
على من يشهدهم من الناس وعلى الطبقة البرجوازية على  
الأخص . وربما توقع في هذه الفترة أن تناح له فرصة  
أرحب لتأملاته العميقة باتصاله بالعطاء .

وقد أتاح له هذه الفرصة صديقه : « بوسويه » ،  
فأدخله مريباً في منزل من أسر النبلاء هو منزل  
« كوندية » ، عام ١٦٨٤ نظير دخل سنوى قدره :  
١٥٠٠ فرنكاً . ومنذ ذلك الوقت كان يقسم إقامته بين  
باريس في منزل كوندية ، قريباً من حديقة الكسمبورج  
وبين « شانتى » غير بعيد من باريس . وكان تلميذ  
لابروير ، دوق بوربون ، في سن السادسة عشرة ،  
عصياً ، مهملاً ، ذامزاج استبدادى ، وأخلاق فاسدة  
يصفه « سان سيمون » بأنه : « حيوان من الحيوانات

المریعة . يبدو أنه لم یخلق إلا لیفترس ، أو یغتال الخنفس الإنسانى . . . وفى الشتاء وصنوف الفسق ینفق وقته ویصادف مسلاته . . . » وكان كوندیه الكبير ذا مزاج حاد ، ضعیف الفكر ، فریسة المرض ، ولكنه كان لطیف المحضر مع لابرویر . وقد كلف لابرویر بتعلیم الدوق فلسفة ديكارت ، ثم الجغرافیا والتاریخ ، والنظم السیاسیة والمیتولوجیا . ویبدو أن لابرویر كان لوظیفته هذه مخلصاً غیوراً ، كما تدلنا على ذلك رسائله السبع عشرة التى كتبها إلى كوندیه الكبير فى تلك الفترة . وتدلنا هذه الرسائل على سعة أفق لابرویر كذلك ، وعلى صدق نظراته التربویة التى اهتدى إليها وحده بعمق فكره . فها هو ذا یدرك تعلیم التاریخ إدراكاً حدیثاً فى رسالته التى كتبها فى ۱۸ من أغسطس عام ۱۶۸۵ ، متوجهاً بها إلى رب الأسرة :

« أوفن أن عظمة رفعتكم ترید أن أحیطه علماً بدواعی الحرب ، وبأخطاء الأمراء وصوابهم . . وبدون هذا لن یكون التاریخ سوى مذكرات لأحداث یومیة » .

وفى عام ۱۶۸۵ تزوج دوق دی بوربون — تلمید لابرویر — من مدموازیل دی نانت ابنة لويس الرابع عشر التى أنجبها من مدام دی مونتسپان . وفى عام ۱۶۸۶ مات كوندیه الكبير ، وأصبح دوق دی بوربون یلقب بالأمیر ، وانتهت فترة تربية لابرویر له بعد أن دامت ثمانية عشر شهراً . ولكن لابرویر استمر فى بیت الأمیر ، مشرفاً على مکتبته .

ولم تكن إقامة لابرویر — على ما له من مزاج حاد واعتداد بنفسه — ميسورة فى مثل ذلك المنزل ، وبخاصة بعد موت كوندیه . وربما كان السبب فى استدامة

إقامته أن الأسرة كانت ترعى لابرویر وتحمیه من أعدائه ، وأنه كان یراها بمثابة شرفة یطل منها على عالم الكبراء لیكمل خبرته بمجمّعه . والأدب الفرنسى — بل العالمى — مدين لهذه الإقامة بكتابه الخالد . وهذا ما یلحظه ویقرره سانت بوف .

ولكن النصوص التى تركها لابرویر تضيف سبباً آخر ( كما لحظ ذلك بحق الأستاذ جى میشو الأستاذ بالسوربون ، فى كتابه عن لابرویر ) — ذلك أن الفیلسوف كان بحاجة إلى المال لیعول أسرته . وقد حمّله ذلك إلى تغیر نظرتة إلى فلسفة العزلة التى كان ولوعاً بها قبل أن یتصل بهذه الأسرة . فقد عدل عن نظرتة إلى العزلة التى سبق أن ذكرنا على الرغم مما یدل على حرصه عليها فى نص یرجع تاریخ تدوینة إلى عام ۱۶۸۹ ، إذ نراه فى نص آخر كتبه فى عام ۱۶۹۱ یفضل عليها مسلکاً آخر : « ثمّ فلسفة تسمو بنا عن الطمع والثروة ، وتجعلنا نساوى — ماذا أقول ؟ — بل نفضل الأغنیاء ونبلاء المولد وأصحاب المناصب الكبيرة ، وتحملنا على الاستهانة بالوظائف وبمن یربّون عنها ، وتخلصنا من الرغبة والسؤال والرجاء والإلحاف وثقل الكلفة ، وتنجننا من الانفعال نفسه ، ومن السرور المفرط بأننا قد علونا . وثمّ فلسفة أخرى تسخرنا وتخضعنا لكل هذه الأمور ، فى سبیل مصلحة ذوی قرابتنا وأصدقائنا : وهى الفلسفة المثلى » . ( الفصل الثانى عشر ، فقرة رقم ۶۹ ) . وفى عام ۱۶۸۸ ظهر كتابه : « الصور الأخلاقیة » فى طبعته الأولى ، بعد أن أمضى قرابة عشر سنین فى تألیفه ، وقرابة عشر سنین أخرى متوجساً من نشره على الناس . وسنخص هذا الكتاب بالحديث بعد قليل . وقد أدى نجاح الكتاب نجاحاً نادراً لدى الجمهور إلى أن یطمح لابرویر فى ترشیح نفسه للأكادیمیة الفرنسیة .

القلبية في العاشر من مايو عام ١٦٩٦ عن إحدى وخمسين سنة .

ويتضح مما سبق أن كتاب « الصور الأخلاقية » يكاد يكون مؤلفه الوحيد ، إلى جانب الرسائل التي كتبها في فترة تربية دوق بوربون - وقد ذكرنا نموذجاً من تلك الرسائل وتحدثنا عن غايته منها - ثم كتاب محاورات في نزعة الهدوء الصوفي الباطني (Quietisme) - وقد أشرنا آنفاً إليه - وقد اعتمدنا ما أمكننا على نصوص كتابه الأول فيما سبق أن ذكرنا من معالم حياته العامة للكشف عن شخصيته ، وحتى لا ندع فرصة ننتفع بها من الكتاب الذي كلفنا بتقديمه . وعلمنا الآن أن نخص هذا الكتاب بمزيد من التحليل والإبانة ، لنتعرف قيمته في شتى نواحيه الفكرية والفنية .

### كتاب الصور الأخلاقية

كان لابروير في سن الثالثة والأربعين من عمره حين نشر كتابه لأول مرة عام ١٦٨٨ . وكثيراً ما راوده الشك في قيمة كتابه لدى الجمهور ، فاستشار كبار أصدقائه من كتاب العصر ، ويحكى المؤرخون له قصة طريفة في ذلك : أنه كان يتردد على صاحب مكتبة في شارع « سان چاك » يسمى : ميشاليه ، ليقتني منه ما جد نشره من كتب ، وكان لصاحب المكتبة طفلة رشيقة يحادثها لابروير ويلاطفها . وذات يوم قال له لابروير بعد أن أخرج من جيبه مخطوطاً : « هل لك في أن تطبع هذا ؟ لا أدري ما إذا كان سيسد نفقات طبعه ، ولكنه إذا أدر رجلاً فسيكون من نصيب صديقتي هذه الصغيرة » . وقد قبل ميشاليه العرض ، وظهر الكتاب في طبعته الأولى مجهول المؤلف بعنوان : « الصور الأخلاقية لتيوفراست ، مترجمة عن اليونانية ،

وكان له فيها أصدقاء خلص ، مثل بوسويه ، وبوالو الذي تحمس له بسبب اشتراكه معه في الانتصار للأقدمين ، في « المعركة بين المحدثين والقدماء » التي أشرنا إليها من قبل ، ثم راسين الذي فضله لابروير على كورني في كتابه ، وأطال في هذا التفضيل في خطاب استقبله بالأكاديمية الفرنسية . وقد تقدم بطلبه للأكاديمية ثلاث مرات منذ عام ١٦٩١ حتى عام ١٦٩٣ ، وهو العام الذي اختير فيه عضواً بها ، واستقبل بها في الخامس عشر من يونيو ، وكان استقبال الأعضاء لخطابه فاتراً ، بل هوجم من خصومه هجوماً شديداً لا يهمننا هنا تفصيل القول فيه ، وبسببه ألف لابروير مقدمة لخطابه الذي ألقاه في الأكاديمية .

وقلما كان يشهد جلسات الأكاديمية عقب انتخابه بها ، بل أمضى أكثر وقته في تلك الفترة في شانتني ، ومن آن لآخر كان يحضر إلى باريس ويزور أصدقاءه من رجال الحاشية . وفي تلك الفترة قامت معركة حول النزعة الصوفية المسماة Quietisme وكان من كبار دعايتها « فينلون » عدو لابروير اللدود ، وقد انضم لابروير فيها إلى بوسويه الذي قاوم هذه النزعة أشد مقاومة . وهي تقوم على دعوة صوفية سلبية ، تنحصر فيها العبادة في التأمل الباطني ، والقضاء على الإرادة الفردية ، والاستسلام التام للألوهية الماثلة أمام المتأمل . وقد ألف لابروير فيها كتابه : محاورات في نزعة الهدوء والاستسلام الباطني : Dialogue sur le Quietisme ، وقد ظهر الكتاب بعد موته ، ويشك كثير من المؤرخين في نسبته إليه ، وقطعاً فيه كثير من الدخيل على لابروير ، وفيه كذلك ما يمثل روح لابروير ونزعته ، وما يتفق وآراءه في كتاب الصور الأخلاقية . وتوفي لابروير فجأة بالسكتة

مع الصور الأخلاقية لهذا العصر وتقاليده . وظفر الكتاب بنجاح عجيب ، فنفدت منه ثلاث طبعات في أقل من عام . وحصلت ابنة ميثاليه منه على مبلغ طيب من الربح حظيت من ورائه بزيحة طيبة . وظل الكتاب ينشر في طبعاته المتوالية مجهول المؤلف حتى الطبعة التاسعة التي ظهرت عقب موته ، ولكنه في الطبعة السادسة قد وضع عليه اسم مؤلف هو : « جوفروا دى لابروير » ( أحد أجداد لابروير ) ، واستمر كذلك حتى في الطبعة الثامنة التي كانت تحتوى على خطابه في الأكاديمية وعلى مقدمة ذلك الخطاب . ولم يكن هذا التواضع باخفاء الاسم إلا ظاهراً ، فقد كان جل الناس يعرفون المؤلف ويرددون اسمه .

أما إظهاره الكتاب باسم تيوفراست ، وإضافة جهده له ، فقد كان واضحاً أنه يتقى بذلك سخط الكبراء ومكائد أعدائه في وقت معاً ، فاحتسب وراء مؤلف إغريقى ، لأنه كان يهجو آفات العصر ممثلة في أولئك العظماء . وكما يعبر عن ذلك « ماريو » في بحثه الذى عنوانه : « لابروير » ، قائلاً إن لابروير في كتابه : « قد أخذ يغامر بالزج بنفسه في بحر المخاطر ، على أمواج تهدده بالعواصف ، فكان من اليسير لديه أن يرفع فوق قلع سقينته العلم الإغريقى تقيّة » . وقد شجعه حسن استقبال الجمهور لكتابه على أن يزيد في طبعاته المتوالية . ومنذ الطبعة الخامسة أخذ يحدد ما يضيفه . ولم تحتو الطبعة التاسعة على زيادة سوى تنقيحات لبعض العبارات . ويكفى أن نذكر أنه في ثنايا هذه الطبعات زاد عدد الصور الأخلاقية من ٤١٨ إلى ١١٢٠ ، على أن خمساً وأربعين منها زيد فيها فقرة أو فقرات كثيرة . ويعترف لابروير في خطاب استقباله في الأكاديمية أنه كان حذراً في هذه الإضافات ، بتقديم فيها عن

مشورة المخلصين ، خوفاً من سخط الجمهور إذا أوغل في هذا الطريق ، طريق الهجاء الاجتماعى المخوف بالأخطار .

وعدد فصول الكتاب — كما وصل إلينا — ستة عشر فصلاً ، هى : التناج الفكرى ، الجدارة الشخصية ، النساء ، من القلب ، فى المجتمع وصلاته ، الثراء والحظوظ ، المدينة ، رجال الحاشية ، العظماء ، رئيس الدولة والدولة ، الإنسان ، أحكام الناس ، فى التقاليد السائدة ، بعض عادات الوعظ الدينى ، ذوو الخواطر القوية ( تسمية ساخرة يقصد بها الملحدون أو من يسمون بأحرار الفكر ) .

ومنهج لابروير أنه يصوغ خواطره متتابعة فى كل فصل من الفصول السابقة ، تحمل أرقاماً متوالية . وغالباً ما يكون الحيط الذى يجمع هذه الخواطر دقيقاً ، حتى لينقطع أحياناً بالقارئ ، فتبدو الأفكار شتية لا نظام لها . وقد حمل أعداء لابروير عليه بأن الكتاب لا وحدة له ولا منهج . فدافع عن نفسه فى خطابه فى الأكاديمية ، فرماه بأنهم لم يلحظوا أن « خمسة عشر فصلاً — من الستة عشر التى يحتويها الكتاب — موضوعها الكشف عن الزيف والمساخر التى يصادفها المرء فى مشاغل الأهواء والميول الإنسانية ، وليست الغاية من هذه الفصول سوى تدمير العوائق التى تؤدى إلى الضعف أولاً ، وتطمس بعد ذلك لدى كل الناس التماس معالم معرفتهم بالله . فليست هذه الفصول الخمس عشرة سوى تمهيد للفصل السادس عشر والأخير . . » وفى خطاب لابروير عن تيوفراست يذكر أنه عني بالكشف عن شرور الإنسان وأهوائه ومواطن السخرية فى سلوكه ، وغايته من ذلك خلقية ، هى « أن يصير الإنسان عاقلاً ، ولكن بطرق بسيطة مألوفة ،



وبوسائل التفكير في أعماله في حيدة ، دون عناية بالمنهج ، وعلى حسب ما تقود إليه الفصول المختلفة . وفي مقدمة الطبعة السادسة من كتابه يذهب مذهب الكلاسيكيين في العناية الخلقية مما يكتب : « على المرء ألا يتكلم أو يكتب إلا من أجل تعليم سواء ، فإذا حدث أنه أعجب الناس فلا ينبغي مع ذلك أن يندم ، إذ أن هذا يساعد على الإيعاز بتقبل الحقائق التي يجب أن يعلمها الناس » .

ولعل خير من كشف عن منهج لابروير في ترتيبه لفصول كتابه هو سانت بوف ، إذ يرى أن لابروير بدأ كتابه بما يخص الفرد أولاً في نتاجه الفكري ، وجدارته ، والمرأة كذلك ، والحياة الخاصة أو العواطف حتى الفصل الرابع ، يلي هذه الفصول الأربع ما يخص المجتمع وصلاته ، ورجال المال حين يتحدث عن الثراء والحظوظ ، ثم أهل المدينة ، ورجال الحاشية ، والعطاء أو النبلاء والأمراء ، ويتبع هذه الفصول بحديثه عن سيد الدولة ، لويس الرابع عشر ، ولم يكن لكتابته أن يخلو من هذا الفصل اتقاء ، وكأنه مانعة الصواعق التي يمكن أن تحيط به لو أهل الكتابة عنه . ويليه فصل عنوانه : « الإنسان » ، فيه يصف لابروير الإنسان على حسب طبيعته الخلقية ، وما تحفل به من خبث ودهاء . ويؤكد « سانت بوف » أن لقطاع الصلة بين هذا الفصل الذي عنوانه : « الإنسان » والذي قبله ، مقصود للابروير ، وله دلالة اجتماعية هجائية . ذلك أنه بعد أن أطرى الملك تقيّة ومدارة ، أخذ يصف الإنسان على الطبيعة ليرى الملك نفسه كما يرى سواء . وتبدو الفصول الثلاثة التالية في أحكام الناس وعاداتهم ومناهج سلوكهم قلقاً بعض القلق في موضعها ، يليها الحديث في آفات رجال الدين في فصل الوعظ ، ثم الفصل

الأخير في البرهنة على ضرورة العقيدة وسلامتها ضد وجود المنكرين ، وكأن هذا الفصل الأخير أيضاً مانعة صواعق أخرى من المؤلف يحتمى بها من أعدائه وخصومه ، وإذن فالخيوط التي يربط هذه الفصول دقيق ، ويريده لابروير كذلك ، لأنه خيط يسير به في متاهات الهجاء الاجتماعي الجريء لآفات العصر ، وللاّثنين بها في حق المجتمع والإنسانية .

ونرى أن الادعاء بالتزام لابروير بمنهج منطقي يجعل لكتابته وحدة ، فيه تكلف لا يبرره النص . ويكفي - تقادياً للإطالة - أن نذكر أن لابروير كثيراً ما يكرر أفكاره في أساليب مختلفة ، في فصول متباعدة في موضوعها . ولنأخذ مثلاً لذلك الفصل الأول من كتابه ، وموضوعه نظرات لابروير في النقد الأدبي وفي قيمة بعض الشعراء والكتاب المعاصرين له . ويصف سانت بوف هذا الفصل قائلاً : « إنه فن الشعر الذي أنتجه لابروير ، وهو فن بلاغته الخاصة به كذلك » . ويتحدث سانت بوف عنه كذلك في موضع آخر أن هذا الفصل فيما يحتوي من آراء نقدية ، وفي طريقة عرضها ، ما زالت قيمته حاضرة ، على حين لم تعد قيمة تذكر لفن الشعر الذي ألفه بوالو . وعلى الرغم من ذلك لا ينبغي بحال أن تقتصر على هذا الفصل في التعرف على آراء لابروير النقدية وعلى طريقة تقويمه للأدب ، إذ أنه يكمل هذه الآراء في فصول كثيرة أخرى من نفس الكتاب ، مثلاً في فصله في الوعظ الديني ، والعادات ، والمجتمع ، وأحكام الناس . . . - على أن هذا الفصل بمثابة مقدمة في فن لابروير وطريقة كتابته التي التزم بها في الفصول التالية . ولهذا نخصه هنا بمزيد من العناية لأهمية دلالاته الفنية والإنسانية .

ولابروير - في هذا الفصل الأول من كتابه - يدعو

— شأنه شأن معاصريه — إلى محاكاة الأقدمين عن هضم وتمثل وأصالة ، مؤمناً بأن هؤلاء الأقدمين من اليونانيين والرومان قد وصلوا في أدبهم وعلمهم إلى درجة لا يمكن معها أن ينبغ كاتب دون أن يرد منابعها الخصبية . فهو يقول : « كل شيء قد قيل ، وقد أتينا بعد فوات الأوان ، منذ ما يزيد على سبعة آلاف سنة ، حين وُجد أناس ومفكرون ، ولم يبق لنا إلا أن نلتقط سقط الحصاد على أثر ما جمعه الأقدمون والنابعون من المحدثين ( يقصد نابغى عصر النهضة من الإيطاليين ) ( الفصل الأول ، فقرة رقم ١ ) — ولكنه يعود — في سعة أفق ومرونة فكر — إلى تقرير إمكان التفوق على الأقدمين بعد ورود مناهلهم : « لن يستطاع بلوغ حد الكمال في الكتابة ، ولن يستطاع — مع توافر القدرة — التفوق على الأقدمين إلا بمحاكاتهم » ( نفس الفصل ، فقرة ١٥ ) — وكأنه يرد على غلاة المحدثين الذين ينكرون فضل القدماء في معركة القدماء والمحدثين لعصره ، حين يقول من نفس الفصل : « يتغذى المرء بميراث الأقدمين وبارعى المحدثين ، وينسخ كتبهم ، ويستخلص منها ما استطاع ، ويحشر منها في أعماله الأدبية . وحينما يصير أخيراً مؤلفاً ، وحينما يعتقد الناس أنه يسير وحده على قدميه ، يتمرد ضد الأقدمين ، ويسىء إليهم ، شأنه شأن هؤلاء الأطفال الذين سلمت بنيتهم وقويت بما تغذوا به من لبن طيب ، يضربون مريبتهم عقب فطامهم » . ( نفس الفصل ، الفقرة الخامسة عشرة ) .

على أن لابروير واسع الأفق في نظرته إلى هؤلاء الأقدمين ، ينعى على المشتدقين باسمهم ، ممن يتخذون الانتماء إلى الأقدمين حظوة في ذاتها ، مستقلة عن غايتها . وهو في نظرته هذه يعبر عن وجهة النظر الحديثة

السليمة . وقد سبق أن لحظنا أنه يوصى بتعليم الطفل ما يستطيع من لغات على سواء ، سواء منها المحدث والقديم ( الفصل الثاني عشر ، فقرة ٤٧ ) — وما هو ذا يحمل في سخرية على المنتطعين بتمسكهم باليونانية لذاتها قائلاً : ( . . . ) ويستمر في حديثه أحد كبار الدولة قائلاً : « فلان يعرف اليونانية فهو إذن مغمور ، فهو إذن فيلسوف !! » وحقاً ، فيما يظهر ، كانت بائعة الخضر في أثينا تتكلم اليونانية ، فهي من أجل ذلك فيلسوفة . وجيرونم بينيون وجيوم دى لا موانيون كانا مجرد نكرات ، ومن ذا يشك في ذلك ؟ وكانا يعرفان اليونانية . . . . إنما اللغات مفتاح العلوم ومدخل إليها ، لا تتجاوز هذا الحد . فاحتقار الأولى يؤدي إلى احتقار الأخرى . ولا تفرق اللغات بكونها قديمة أو حديثة ، ميتة أو حية ولكن بكونها خشنة أو مهذبة ، وبما إذا كانت الكتب التي صيغت فيها ذات ذوق طيب أو سيئ . . . » ( الفصل الثاني عشر ، فقرة رقم ١٩ ، قارنها كذلك بالفصل الرابع عشر ، فقرة ٧٣ ) .

وواضح من دعوة لابروير إلى الغاية الخلقية التعليمية للأدب — فيما سبق أن ذكرنا — أنه كان ينزع فيها منزع الكلاسيكيين ، ولكنه يعنى عناية خاصة بالأسلوب الواضح الدقيق الأصيل : « في الفن نقطة كمال ، شأنه شأن الطيبة والنضج في الطبيعة . والذي يشعر بهذه النقطة ويولع بها هو ذو الذوق الكامل . ومن لا يشعر بها ، أو يولع بما دونها أو ما وراءها ، فهو ذو ذوق تالف . فثمَّ إذن ذوق طيب وذوق سيئ ، ويمكن أن يناقش الذوق مناقشة يدعمها أساس » ( مناقشة موضوعية ) ( الفصل الأول ، فقرة رقم ١٠ ) .

والذوق نوع من الغريزة يكتسب بالتربية ، وهو مقدم في النقد على مجرد مراعاة القواعد الجافة التي قد

تنال من روح العمل الأدبي . وهنا أيضاً يتجاوز لابروير منطقة الكلاسيكية العقيدية : « حيناً تسمو القراءة بفكرك ، وتلهمك مشاعر النبل وعلو الهمة ، فلا تبحث عن قاعدة أخرى للحكم على الكتاب ، فهو حينئذ طيب ، خرج من يد صناع » ( نفس الفصل ، رقم ٣١ ) - وغاية الكاتب الحقيقية هي الكشف عن الحقيقة الموضوعية ، دون التطلع إلى التأثير المباشر : « علينا أن نبحث عن صواب التفكير وصواب القول فحسب ، دون إرادة قيادة الآخرين إلى اتباع نفس ذوقنا ومشاعرنا ، فهذا مطمح يتجاوز الطاقة » ( نفس الفصل ، فقرة ٢ ) .

وعلى الرغم من أنه لا ينبغي أن يدور في خلدنا أن لابروير من دعاة الفن للفن ، لما سبق أن ذكرنا من نصوص ، فانه يعنى مع ذلك بالصياغة عناية جعلت بعض المتسرعين يعزون إليه أنه من دعاة الفن الخالص ، ولكنه في الحقيقة يقصد إلى الموازنة بين التعبير والفكرة ، دون أن يجعل العبارة غاية في ذاتها . وهذا ما جعل سانت بوف يجعل خاصة كتابه الأولى أنه يتساوى فيه الشكل والمضمون مساواة تامة فريدة عجيبة . وها هو ذا لابروير يؤكد عنايته البالغة المدى بالتعبير : « بين جميع التعبيرات المختلفة - التي يمكن أن تدل على فكرة من أفكارنا - ليس سوى تعبير واحد منها هو الصالح . ولا يضادفه المرء دائماً حين يتكلم أو يكتب ، على أنه مع ذلك موجود ، وكل ما سواه ضعيف لا يرتضى به رجل الفكر الذى يريد أن يفهمه الناس . . . » ( نفس الفصل ، فقرة ١٧ ) - ولا يقع المرء على هذا التعبير إلا بالموازنة الدقيقة بين المضمون والشكل ، وبمراعاة الحقيقة ، وجهد العناية باختيار الألفاظ وصياغة التركيب ووضوحه : « كل فكر المؤلف ينحصر في دقة التحديد

ودقة التصوير . فلم يتفوق موسى وهومير وأفلاطون وفرجيل وهوارس على من سواهم من الكتاب إلا بتعبيراتهم وصورهم ، وعلينا أن نعبّر عن الحقيقة ، ليكون ما نكتبه طبيعياً قوياً دقيقاً » ( نفس الفصل ، فقرة رقم ١٤ ) . وننبه هنا إلى أن ورود كلمة « الصور » في عبارات لابروير - كالعبارة السابقة مثلاً - لا يقصد بها سوى الوجوه البلاغية الكثيرة المختلفة ، ولا تمت بصلة إلى الخيال في مفهومه الحديث ، إذ أن لابروير ظل في هذا كلاسيكياً ، لا يؤمن بالخيال ، والخيال عنده مرادف للوهم ، يحذر منه كما حذر منه من قبل أرسطو ، معبود الكلاسيكيين ، ويعده آفة الكاتب ، لأنه « لا ينتج غالباً سوى أفكار زائفة مجدبة » ( الفصل الخامس ، فقرة رقم ١٧ ) . ويسير لابروير في هذا على درب كلاسيكى مطروق ، كما هي حال پاسكال وبوالو . ونحن هنا أبعد ما نكون من القرن الثامن عشر والتاسع عشر الأوربي ، وبخاصة منذ « كانت » ، حين أصبح الخيال - في معناه الحديث - هو مصدر الصورة ، وأكبر دعامة للكاتب والشاعر . ويعتد لابروير في قواعده الجمالية بسلامة الذوق ، وطول ممارسة الأعمال الأدبية ، وقوة التمييز بين الأساليب على أساس من الدربة ورهف الحس الفنى ، أكثر مما يعتد بالقواعد في حرفيتها . ويتميز في هذه الناحية عن أقرانه من الكلاسيكيين ، وبخاصة بوالو . يقول لابروير : ( ما أوسع الفرق بين كتاب جميل وكتاب كامل ، أى مطابق للقواعد ، ولا أعرف ما إذا كان قد وُجد بعد كتاب من هذا النوع الأخير ، وربما كان الوقوع على ما هو عظيم جليل أيسر لدى العبقرية النادرة من تجنب كل صنوف الخطأ في القواعد . . . فالشعر في مسرحية « السيد » من أجمل

الأشعار التي يمكن صلوها ، على حين أن خير نقد ألف في موضوع من الموضوعات كان نقد مسرحية « السيد » ( نفس الفصل ، فقرة ٣٠ ) . وفي الفكرة الأخيرة يشير لايروير إلى المعركة الشهيرة في النقد الفرنسي حول مسرحية السيد لكورني ، ويطرى المسرحية ، كما يطرى النقد الذي صيغ فيها في لهجة مهذبة ، برغم قسوته وتهافته أحياناً . وفي هذه الفكرة يقر لايروير الصراع الدائم بين النقد والأدب ، ولكنه يقر في الوقت نفسه حق الكاتب في عصيان القواعد متى أخرج عملاً جليلاً جميلاً معاً . وقد انتصف لايروير لكورني في مسرحيته هذه التي خرج فيها على قواعد عصره ، على الرغم من أن لايروير كان يفضل عليه راسين الشاعر الفرنسي الذي راعى القواعد الكلاسيكية في دقة . وهذا انتصاف للخصم على حسب المبدأ ، لا سيراً مع الهوى . ونحس في وجهة نظره هذه نوعاً من المرارة والنقمة ، ضيقاً بنقد معاصريه . فهو يحذر من منحهم ثقته ، ويبحث عن معيار آخر أوثق صلة بروح العمل الأدبي من المعايير الحرفية السائدة ، ولكنه معيار يتطلب جهداً وأناة واستيعاباً لا يلقى فيه القول على عواهنه : « ليس النقد في الغالب علماً ، ولكنه مهنة ، يتطلب من قوة المثابرة أكثر مما يتطلب من العقل ( التقريرى ) ، ومن العمل أكثر مما يتطلب من التأهيل ، ومن المرات أكثر مما يتطلب من العبقرية ، فاذا صدر عن تطفئ قراءاته على قوة تمييزه ، وعن ممارسه في نطاق جزئى على بعض الفصول ، كان مدعاة فساد القراء والكاتب » ( نفس الفصل فقرة رقم ٦٣ ) - ويعود في فصل آخر فيؤكد ضرورة العمل والجهد ، ناعياً على الطفيليين الذين يستمرئون الجهل تقاعداً وتوانياً ، فيتعلقون بالكبراء والنبلاء لحمايتهم ، كما يتشدقون بأسماء كبار

الكتاب من قدماء ومحدثين ، يدعون شرف الانتماء إليهم دون دراية بهم ، وزهداً في البحث ، ثم يعقب : « يلزم المرء قليل من المعارف كي يساير فروض التهذيب في أدب المجتمع ، ولكن كم يلزم منها لأدب الفكر !!! » .

فكيف يوفر الكاتب والناقد لنفسه المقدرة الأدبية ؟ هنا أيضاً يلجأ لايروير إلى منهج يغاير منهج معاصريه ، وفيه تظهر أصالته ، حين يتعرض لكيفية تلذوق النصوص الأدبية وشرحها ، وكأنه يلوح بذلك إلى طريقته في تكوين نفسه بتمثل آداب الأقدمين ، كما يفهم من مقدمته لترجمته كتاب تيوفراست . ويشرح ذلك لايروير - في الفصل الرابع عشر من كتابه - حيث يتول : « لا يفنى امرؤ بحق التوصية بدراسة النصوص مهما أظن . فهي السبيل الأقصر والآكد والأمتع لكل صنوف المعرفة . فاحصل على الأشياء من أربابها ، لتتاح من المصدر : تحسس النص وأعد تحسك له ، واحفظه ، واستشهد به من الذاكرة في المناسبات ، وفكر على الأخص أن تنفذ إلى معناه في امتداده وتفصيله ، ووفق بين أفكار المؤلف الأصيل ، واضبط مبادئه ، لتستخلص أنت بنفسك النتائج . وقد وجد الشراح الأولون أنفسهم في نفس الحال التي أريدك أن تكون فيها . فلا تستر بشروهم ، ولا تسر وراء نظراتهم إلا حين تقصر بك نظرتك . فشروهم ليست لك ، ومن اليسير كل اليسر أن تستعصى عليك ؛ على حين تتولد ملحوظاتك من فكرك وتظل فيه ، وستجدها مألوفة عادة في صلاتك بالناس ومشاوراتك وجدالك ... واخلص هكذا - بفضل هذه الطريقة في الدراسة - إلى الإقناع بأن كسل الناس هو الذى شجع على الفهقة بتضخيم المكتبات لا باغنائها ،

وبالمساعدة على تدمير النص تحت أعباء الشروح .  
(الفصل الرابع عشر ، فقرة رقم ٧٢) .

ونفهم أن لابروير يرشد هنا إلى طريقة ، ولا يقصد إلى امتحان النقد ، لأن هذه الطريقة السليمة نفسها لا بد أن تتم بإشراف ذوى الدربة منذ البداية . وشاهدنا على ذلك أنه كان يتبعها في تربيته لدوق بوربون في دراسة التاريخ والنصوص الأدبية .

ومن ثانيا هذه النظرات النقدية الموضوعية العميقة التي تجلت فيها أصالة لابروير ، نلمح جانباً ذاتياً ، ذلك أنها أولاً وآخرآ ثمرة تجربته الحوية التي عاشها . ونشعر أنها بمثابة رد فعل لما تعرض له من حيف لدى معاصريه من النقاد فلم يعأبه ، وانصرف إلى الإخلاص لفنه . وقد أوحى له ذلك بإدراك عميق آخر ، هو الاحساس بتطور الأدب وحيويته ، وتغير الأذواق بتغير العصور . وهذه أيضاً نظرة تتجاوزها الكلاسيكيين . فعلى الكاتب أن يخلص لرسالته ، ويصدق في فنه ، وسيجد الجزاء على تطاول الأجيال إذا جحد له معاصروه : « من لا يعتد في كتابته إلا بدوق عصره يفكر في نفسه أكثر مما يفكر فيما يكتب : فعليه أن يتطلع دائماً إلى الكمال ، فتسترد الأجيال اللاحقة لنا ما جحد معاصروننا من إنصافنا » . (الفصل الأول ، فقرة رقم ٦٧) .

وحملته على بعض معاصريه من النقاد واضحة الدلالة فيما قلنا ، وهى تصدق على أدعاء النقد ، وكذلك على سيئى النية المعوقين في كل عصر . ولتقتصر منها على شاهدين بالغى الدلالة على من يتسترون على السوء على حين يعرفهم الجمهور بأسمائهم ممن أظهرتهم المصادفات الآثمة ، في حين ليسوا سوى دخلاء مدخولى الطوية ، وفيهم يقول لابروير في صورة

حوار : ( ماذا تقول في الكتاب الذى ألفه هيرمودور ؟ « إنه كتاب سيء » ، هكذا - يجب « أنتم » - أهو سيء ؟ - فيستمر في إجابته : هو كذلك ، حتى إنه ليس بكتاب ، أو على الأقل لا يجدر أن يتحدث عنه الناس - ولكن هل قرأته ؟ - ويجب « أنتم » : كلا ! ! - ولم لا يضيف إلى ذلك أن فولثيا وميلانيا قد أنكراه دون أن يقرأه ، وأنه صديق فولثيا وميلانيا ؟ )  
( نفس الفصل ، فقرة رقم ٢٣ ) .

ويتخذ لابروير هدفاً له آخر نوعاً من النقاد يتنكرون لما يعرفون ، ويكفرون بحق الكتاب الذين يؤمنون بقدره فيما بينهم وبين أنفسهم ، ضناً واعتداداً كاذباً ، ويعبر لابروير في هذا عن تجربته الخاصة بكتابه قائلاً : « كثير من الناس يصلون إلى درجة الشعور بمكانة المخطوطة التي قرئت عليهم ، ولا يمكنهم أن يضرخوا بما تستحق حتى يروا رواجها في الناس بعد طبعها وماذا يكون حظها لدى ذوى المواهب ، فلا يغامرون بأصواتهم ، ويريدون أن يحملهم الجمهور على ذلك ، أو يقودهم إليه سواد الناس . وحينذاك يقولون إنهم أول من استصوب هذا العمل ، وأن الجمهور تابعهم فيه . . . » ( نفس الفصل ، فقرة رقم ٢١ ) .

\* \* \*

ومن تحليلنا التفصيلي للفصل الأول من الكتاب تبين أن لابروير لا يتبع وحدة حاسمة في عرض أفكاره ، ولا منهجاً دقيقاً في تسلسلها ، ذلك أنه يكررها في مختلف الفصول ، لمناسبات كثيرة ، مما يصعب معه تتبع الأفكار على حسب موضوعاتها فصلاً فصلاً - لهذا ، ولضيق المجال المحدد لهذا المقال ، علينا أن نتبع أهم اتجاهاته العامة الباقية في مختلف الفصول جملة - بعد أن

عرضنا نظراته النقدية - كى ننبعها بمجمل عن فنه  
فى كتابته .

وقد التزم لابروير فى كتابه أن يصور آفات  
العصر ، ويصف مآثمه . وقلما يتعرض لتصوير  
الفضائل . ويغلب أن تكون هذه المواطن القليلة فى  
حديثه عن الخير والفضائل دخيلة على عمله الأدبى ،  
يعرضها من باب التقية أو التعريض . وهو ينص فى  
مقدمة كتابه أنه إنما يصور عيوب مجتمعه على حسب  
ما لحظه فى الطبيعة لكى يصلح المجتمع ذات نفسه :  
« وهذه الغاية هى وحدها التى يجب أن يتوخاها  
الكاتب ، وفيها مدى النجاح الذى قلما يتوقعه المرء .  
ولكن بما أن الناس لا يسأمون أبداً من ممارسة النقائص ،  
فعلينا كذلك ألا نمل - تأنيبهم . وربما يصيرون أسوأ  
إذا أعوزهم الرقابة والنقاد ، وهذا الأمر الذى يحمل  
الناس أن يعظوا وأن يكتبوا » .

وهو تارة يصف الإنسان والمجتمع وصفاً طابعه  
التشاؤم والتفجع ، وتارة يتجاوز الوصف إلى النقد  
الذى يشف عن بعض الأمل ، ويبلغ بهذا النقد أحياناً  
أخرى مبلغ الهجاء الاجتماعى الذى ينزع فيه مزعاً  
ثورياً واضحاً . ولنضرب أمثلة عامة موجزة لهذه  
الاتجاهات :

١ - يدور تصويره للناس أفراداً أو فى الجماعات  
على فكرتين أساسيتين : أن الحياة سيئة ، وأن الخبث  
من طبيعة الناس : « لا ينبغي أن نختد على الناس حين  
نرى غلظتهم وكفرانهم وإجحافهم وصلفهم وحجهم  
لأنفسهم ونسيانهم الآخرين : فهكذا خلقوا ، وهذه  
طبيعتهم . وهذا الاحتداد بمثابة ألا نستطيع احتمال أن  
يسقط الحجر وأن تشب النار » . ( الفصل الحادى عشر  
فقرة رقم ١ ) . والحياة قصيرة المدى : « الحياة قصيرة

ملة ، تمضى كلها فى القمى ، يؤجل المرء إلى الغد أمله  
فى راحته وسروره ، إلى تلك الفترة التى يكون قد  
اختفى فيها خير ما فى العمر من صحة وشباب ...  
ويأتى ذلك العهد الذى يفجئنا كذلك فى رغباتنا ،  
وها نحن أولاء تفرسنا الحمى وتحاصرنا ، فاذا شفيْنَا  
منها فلكى نأمل كذلك فى زمن أطول » . ( الفصل الرابع  
فقرة رقم ٦٤ ) - وكذلك يقول : « يجب أن يضحك  
المرء دون أن يكون سعيداً ، خشية أن يموت قبل أن  
يضحك » . ( نفس الفصل رقم ٦٣ ) . وفى الناس من  
النقائص ما يجعلهم لا يحفلون بالمجتمع ، ومن ثم تتعذر  
عشرتهم والوفاق بينهم : « يتساءل المرء لماذا لا يعيش  
الناس جميعاً معاً ، ولا يولفون أمة واحدة ، ولا يرغبون  
فى أن يتكلموا لغة واحدة ، وفى أن يحثوا خاضعين  
لقانون واحد ، متوافقين على عادات واحدة وعبادة  
واحدة ؛ ولكن حين أفكر فى تباين الأفكار والأذواق  
والعواطف ، أدهش حتى من رؤيتى سبعة أشخاص  
أو ثمانية يعيشون تحت سقف واحد وبين جدران  
واحدة ، ليكونوا أسرة واحدة » . ( نفس الفصل رقم ١٦ )  
ولابروير ينعى على المتحضرين من ساكنى المدن ومن  
رجال التصوير أنهم فى أدوائهم الاجتماعية قد ضلوا فى فهم  
الحياة . ولعله بذلك هو الكاتب الوحيد من بين الكلاسيكيين  
الذى أشاد بالريف وأهله ، واعتد بالطبيعة وفضلها :  
« ... فالطبيعة من نصيب من يسكنون الريف ،  
هوئلاء وحدهم يعيشون ، وهم وحدهم على الأقل الذين  
يعرفون أنهم أحياء » . ( الفصل الثانى عشر رقم ١٩٠ ) .  
وحين يتأمل فى النظام الاجتماعى لا يرى سبباً للتفرقة  
بين الناس فى طبقات ، ليرتفع بعضهم على حساب  
الآخرين ، دون مبرر من الجدارة والجهد - ويروعه  
غرور الكبراء ، وغلوهم فى اعتدادهم بأنفسهم على

غير أساس . فهم يستمعون إلى مدائحهم من سواد الشعب في استهانة ، شأنهم في ذلك شأن الأمراء الذين يستهينون بدورهم بما يكيل لهم هؤلاء الكبراء من مدح كذلك . وأساس ذلك الغرور . ( الفصل التاسع رقم ٥ ، ١٨ ، ١٩ ) .

ونكتفى بهذا القدر من شهادة لابروير على عصره في تصويره له ، لنبين بعض جوانب نقده وهجائه الاجتماعي الذي تتضح فيه ثورته على نظام عصره .

٢- ويحمل لابروير حملة شعواء على حقوق النبلاء والعظماء ، وأنها مبنية على غير أساس ، ونحس وراء حملته اعتداده القوى بنفسه ، وشعوره بالحيث هو وأمثاله بين هؤلاء ، مما يجعله ضحية ألقاب فارغة اتخذت تعلقة للاستبداد . ولا شك أنه بذلك قد مهد للثورة الفرنسية وطلائعها في القرن التالي . يقول لابروير : « امتياز العظماء على من سواهم من الناس بالغ المدى من جانب : وأتنازل لهم عن رخاء العيش وفخامة الأثاث ، وعما يقتنون من كلاب وخيل وقروء وأقزام ومضحكين ومتملقين ، ولكني أغبطهم على حظوتهم أن يكون في خدمتهم أناس يستون معهم قلباً وفكراً ، بل يفضلونهم أحياناً » . ( الفصل التاسع رقم ٣ ) .

ويذهب لابروير إلى وصف الحقد الدفين في قلوب الشعب على امتيازات النبيل ، وكأنه يحذر من هذا الحقد ، أو يستثيره في قلوب المهضومين ليبلغ مداه بالثورة عليه . « يتباغض صغار الناس حين يتبادلون المساءات بينهم . والعظماء مبغضون إلى صغار الناس - بما يفعلون بهم من شر ، - وبالخير كله الذي يجرمونهم إياه ، وهم مسئولون تجاههم عن سواد عيشتهم وفقرهم وسوء

أخلاقهم ، أو على أقل تقدير يبدون في نظرهم كذلك » ( نفس الفصل فقرة رقم ٢٢ ) .

ويبدو لابروير مرهف الحس ، ثائر الفكر عميقاً في إنسانيته ، حين يصور طائفة الفلاحين ، وهم ساكنو الريف الذي يعطف عليه ويغبط أهله لقربهم فيه من الطبيعة . وإذا كان في دعوته إلى حب الطبيعة رائداً للرومانتيكيين ، فانه في دعوته إلى إنصاف الفلاحين قد سبق هؤلاء الرومانتيكيين ، كما سبق في هذا عصره كله . يقول لابروير يصف الفلاحين في حقولهم في عصره : « يرى المرء بضع حيوانات متوحشة ما بين إناث وذكور ، منتشرة في الريف ، على سبيلها سواد ترهقها غبرة ، أمعن الشمس في إحراقها ، مرتبطة بالأرض تحفر فيها ، وتقبلها في عناد لا يقهر ، ولها ما يشبه الصوت الملفوظ . وحين تقوم على ساقها تبدو لها وجوه كالناس . وحقاً هم أناس . في الليل يأوون إلى جحور ، حيث يعيشون على الخبز الأسود والماء وأعشاب الحقول . وهم يكفون الآخرين من الناس مثونة الزرع والحرث والقطاف ، كي يعيشوا . ولذلك يستحقون ألا يعوزهم هذا الخبز الذي هو من ثمار غرسهم » . ( الفصل الحادى عشر ، فقرة رقم ٢٨ ) ويرتاع لابروير للمفارقات الطبقية ، ويرسل صيحاته المدوية العميقة للقضاء عليها ، حتى لنشعر في عمق أنه على أهبة التضحية من ذات نفسه في سبيل العدالة الاجتماعية : « في الأرض صنوف بوئس تذهب باللب : بعض الناس يعوزهم القوت : يخشون الشتاء ويرهبون الحياة . على حين يأكل بعضهم في مكان آخر بواكر الفاكهة ، ويكرهون الأرض والفصول أن تخرج لهم ما استطاب . ومن البرجوازيين الصغار - لا شيء سوى أنهم أصبحوا أغنياء - من يجرعون

على ابتلاع غذاء مائة أسرة في وجبة واحدة . ليجنح من يشاء إلى هذين الطرفين المتناقضين ، فلا أريد ، إذا استطعت ، أن أكون شقياً ولا سعيداً ، سألقى بنفسى بين طرفى القصد لألوز به » . ( الفصل السادس فقرة رقم ٤٧ ) .

ولم يكن لابروير نفساً بائساً ، ولكنه كان يشعر بالفقر من حوله لغنى مشاعره ، ويرى في هذا البؤس المستهتر به من جانب الأغنياء عار المجتمع ، بل عار الإنسانية : « إنه لنوع من العار أن يكون المرء سعيداً بمرأى من بعض صنوف البؤس » . ( الفصل الحادى عشر ، فقرة رقم ٨٢ ، قارنها كذلك برقم ٨٠ ورقم ١٢٧ ، ١٢٨ من نفس الفصل ) . وتراءى قمة هذه الثورة في تفضيل لابروير أن يكون من الشعب على أن يكون من الطبقات الأرستقراطية المستبدة بالشعب . ولم يجروأ أحد من معاصريه على الموازنة بين هذين الطرفين ، فضلاً عن تفضيل الشعب على الكبراء ، وهنا نرى بشائر القرن الثامن عشر الذى حطم تلك الفروق ومحا تلك الطبقات . يقول لابروير : « إذا وازنت بين حالتي الناس المتناقضتين كل التناقض ، أعنى بذلك الكبراء والشعب ، فإن الشعب يبدو لى مكتئباً بالضرورة ، على حين الآخرون قلقون فقراء مع فضلهم فى الرزق . ورجل الشعب لا يستطيع ارتكاب أى شر ، والعظيم لا يرغب فى فعل أى خير ، وهو قادر على الإتيان بكبار الآثام ، والأول لا ينشأ إلا على الأمور النافعة ولا يمارس سواها ، على حين ينحاز الآخر إلى المضار ؛ وهناك تراءى - فى سذاجة - الخشونة والصراحة ، وهنا تكمن عصارة خبيثة فاسدة تحت لحاء من مراسم الأدب . والشعب قلما يتوافر له الفكر ، على حين يعوز العظماء الروح . وللشعب جوهر طيب

ولا يعبأ أبداً بالمظاهر ، على حين ليس لدى العظماء سوى المظاهر مع سطح ضحل . أو على أن أختار ؟ لن أتردد : أريد أن أكون من الشعب » . ( الفصل التاسع ، فقرة رقم ٢٥ ) .

ويسمو تقويمنا لهذه الصيحة الثائرة إذا عرفنا أن لابروير كان مرهف الحس ، يضيق بغلظ إحساس الشعب وخشونة الأخلاق الريفية ( انظر الفصل الثامن رقم ٤٥ ، والثانى عشر رقم ٢٢ ، ٤٨ ، مثلاً ) . ولكنه يتناسى ما فى الشعب من غلظة وخشونة ، لينحاز إليه فى مواجهة الظلم ، لا شراكه فى الثأر معه ضد كبراء العصر . ألا يخطو بنا هذا القول نحو صينحات «ديدور» و «روسو» فيما ناديا به من بعد من مثالية الشعب وعصمته ؟ ألا تجود الموازنة الصائبة بين فكرة لابروير السابقة وإجابة « فيجارو » على كلام الكونت « ألمانفا » فى مسرحية « حلاق أشيلية » ، إذ يقول « فيجارو » : « أحس بسعادة مفرطة حين ينسانى الوزير ، معتقداً أن النبيل من النبلاء يؤدى لنا خيراً ما كف عن إصابتنا بالأذى » . ( مسرحية حلاق أشيلية ، الفصل الأول ، المنظر الثانى ) .

\* \* \*

بقى لنا أن نجمل القول فى خصائص أسلوب لابروير . وقد سبق أن ذكرنا أهم أفكاره النظرية فى ذلك على حسب الفصل الأول من كتابه ، ثم على حسب أفكاره فيه كذلك فى الفصول الأخرى . وهى بمثابة المنهج الذى اتبعه لابروير فى كتابته ، عن أصالة انفرد بها فيما كتب ، حتى ليقول عنه بحق معاصره : « ميناج » : « لم يعثر أحد قبله على مثل ما وقع عليه من قوة التعبير وصوابه فيما نلتقى به من كتابه . فهو يقول فى كلمة ما لا يستطيع أن يؤديه سواه فى ست كلمات .



ومن الجميل لديه أيضاً أنه - على الرغم من جسارته في التركيب لعباراته - ليس من بينها ما هو زائف ، أو ما لم يوفق فيه كل التوفيق في بيان فكرته . وأشك كثيراً أن يستطيع امروء مجاراته بعد . . . » ويقول عنه تين : « تنحصر موهبته أساساً في فن الاجتذاب إلى ما يقول . قلما يبتكر ، ولكنه يطبع ما يمسه بطابع لا يمحي . ولا يقول سوى حقائق مألوفة ، ولكن لا يستطيع نسيانها بعد أن يقولها . . . » ويرى الأستاذ « جى ميشو » أنه لا نظير له في أسلوبه في الأدب الفرنسي كله ، من حيث طول أناته وعمق وعيه وأناقته تصويره . ويقر له « سانت بوف » بنفس المقدرة ، وإن أخذ عليه بعض الهنات من التكلف مما يسميه : « عقب أخيلوس » عند لابروير .

وعلى الرغم من أن هذه الوسائل الفنية لا يتذوق أكثرها إلا في لغتها ، نذكر مع ذلك بعضها ، مما يمكن أن يتذوقه القارئ العربي . فمنها التعريف اللاذع في طابع هجائى : « المتدين الزائف هو الذى يصبر كافرًا تحت حكم ملك كافر » . ( الفصل الثالث عشر ، رقم ٢١ ) . والاستفهام الدقيق الذى يحتوى في نفسه على الإجابة عن معنى دقيق : « إذا كان مألوفاً أن نتأثر بالغ التأثير بالأشياء الجميلة ، فلماذا نبدو أقل تأثراً بالفضيلة ؟ » . ( الفصل الثانى رقم ٢٠ ) - والتعمية المثيرة للانتباه في شكل أحجية : « يوجد ناس في مسكن سيء ومبيت غير مريح ، يلبسون الأسهال ، ويتناولون أسوأ غذاء .. يعانون من الحاضر والماضى والمستقبل ، حياتهم عذاب دائم عن طيب خاطر ، وهكذا وجدوا السر في السلوك إلى الهلاك بالطريق الأشق . أولئك هم البخلاء » . ( الفصل الحادى عشر ، رقم ١١٤ ) . ( ومما يستحق الإشارة إليه أن الجاحظ يطنب في هذا المعنى ، ولكنه

لا يتخذ نفس الوسيلة التصويرية ) . ثم التحليل للمعاني النفسية بطريق تعيين دقائق المظاهر الخارجية ، وحسن استخدام الحوار أو الحديث الفردى .

والخاصتان الأخيرتان تابعتان لفن الصورة الأخلاقية ، وهو فن كان رائجاً وتابعا لغيره قبل لابروير في الأدب الفرنسى ، ولكن « لابروير » بلغ به أقصى ما قدر له من كمال ، ولم يتبع فيه طريق تيوفراست في تعداد الحقائق التجريدية للنموذج الخلقى من حيث هو ، كالبحيل والمرائى ، والخبيث ، والمغتر . . . من حيث هم نماذج بشرية صالحة لكل زمان ومكان ، ولكنه ألزم وصف نماذج حية تنطبق على ذوى النقائص في عهده ، وعرف كيف يردها خالدة المعنى والأثر بفنه . وقد حاول معاصروه أن يروا وراء كل صورة شخصاً معيناً من معاصريه قصد إلى هجائه في صوره ، فألفوا كتباً عنوانها : « المفاتيح » للكشف عن الشخصيات التى قصد إليها لابروير في صوره . وقد أنكر لابروير ذلك توجساً مما قد يثيره خصومه من عدا و مكيدة . ولكن يظهر من رده نفسه أن هذا الرد لم يكن سوى تقيّة . يقول لابروير في مقدمته لخطابه الذى ألقاه في حفل استقباله بالأكاديمية : « .. لقد صورت في الحقيقة حسب الطبيعة ، ولكنى لم أفكر دائماً في تصوير هذا أو تلك ، في كتابى عن العادات والتقاليد . . . قد أخذت سمة من جانب وسمة من جانب آخر ، ومن هذه السمات المختلفة التى يمكن أن تنطبق على نفس الشخص ، ألفت صوراً محتملة ، ولم يكن همى تسلية القراء بهذه الصور الأخلاقية ، أو بالهجاء لشخص معين - كما يقول الساخطون - بقدر ما اهتممت أن أقترح على القراء آفات ليتجنبوها ونماذج ليتبعوها » .

ونضيف إلى صورة الناقد الأعمى البصيرة - الذى ذكرناه عند تحليلنا للفصل الأول من الكتاب - مثالا آخر لفن الصورة الذى تميز به لابروير ، وفيه يتمثل الكثير من وسائله الفنية التى أشرنا إلى بعضها .

وهذا المثال هو صورة الوصول الدعى ، يصل بحيله أكثر مما يصل بمواهبه ، ويعتمد على وسائل الجاه لدى سواه دون جدارة أو كفاية من ذات نفسه . ويذكر مؤلفو « المفاتيح » أن لابروير كان يقصد بتلك الصورة « دوق دى لافوياد » .

ويسمى لابروير صاحب هذه الصورة : « تليفون » ؛ وفى التسمية نفسها سخرية لأن « تليفون » - أصلا - آلة تذهب بالصوت إلى بعيد ، ولكنه مجرد صوت ، وليس بصيت . ويذكر لابروير هذه الصورة فى موضعين من كتابه ، نترجمهما تباعاً :

« أو أنت صاحب فكر ومجد وبراعة وذوق وقوة تميز ؟ أو أستسلم للحدس والملق اللذين يعلنان فى جسارة عن جدارتك ؟ هما أمران مرييان أستنكرهما . أو أترك نفسى تغتر بالبريق الخادع لقدرتك وتعاليك ، مما يضعك فوق كل ما يفعل وما يقال وما يكتب ، ومما يردك صلب العود على المدح ، ويحول دون أن أنتزع منك أقل استصواب ؟ وأستخلص من هذا - طبيعة - أنك من ذوى الخطوة والصيت والثراء الكبير . ما الوسيلة إلى تعرفك ، أى تليفون ؟ - لا يقترب المرء منك إلا كما يقترب من النار ، يظل على بعض المسافة منها ، ويجب أن تنتزع من أغطيتك ( مما يحيط بك من أغشية الملحق والاعتماد على الجاه والصيت ) ، وأن تختبر ، وأن تُقرن بنظرائك حتى يستطيع إصدار حكم صحيح حكيم عليك . الإنسان الذى أوليته ثقتك ، وهو من خلص خلصائك ، ومنه تستمد نصحك ،

ولأجله ترك سقراط وأرسنيد والذى تضحك معه ويعلو عليك بضحكه ، وهو أخيراً « داف » ( عبد من العبيد فى ملهاة تيرنس التى عنوانها : أندريا ) وهو معروف لى حق المعرفة : أفلا يكفى هذا لمعرفتك أنت حق المعرفة ؟ » . ( الفصل التاسع رقم ٢٠ ) .

- « يوجد أناس يرغبون من وراء عهتهم ، فيركبون متن الموج ، وتدفعهم القلاع فى بحر حيث يفشل الآخرون ويتحطمون ، ولكنهم يصلون وقد عقوا كل وسائل الوصول عقوقاً ، هم أناس مخلصون لأناس آخرين ، للعطاء الذين انقطعوا لعبادتهم ، وفيهم وضعوا أقصى آمالهم ، ولكنهم لا يخدمونهم ، بل يسلمونهم . وأهل الكفاية هم المحسنون عملاً الذين لا غنى للعطاء عنهم . ولكن أولئك المسكين لا غنى عنهم للعطاء ، ويعلوهم بياض الشيب لديهم ، ويمارسون فى خدمتهم لهم طيب الكلمات بدلا من طيب الأعمال ، ليتطلبوا على ذلك الجزاء . وينزعون مناصب خطيرة منهم بقدرتهم على تسليتهم إياهم ، ويرتفعون بما يأتون من الدعابات الدائبة إلى أعظم مكانة ، وأخيراً تنتهى بهم آجالهم ، فيرحلون إلى مستقبل لم يرحوه ولم يحشوه . ولا يبقى منهم على الأرض سوى المثل الذى حازوه فى الإثراء ، مثل مشثوم على كل من يريد أن يحتذيه ! ! ! » . ( الفصل الحادى عشر رقم ٩٦ ) .

...

وفى هذا الموجز الذى قدمناه عن لابروير ، قد أشرنا إلى محافظته ومجاراته لعصره فى مواطن قليلة من آرائه ، مما يلتحق بما سماه سانت بوڤ « عقب أخيلوس » عند لابروير ؛ على حين عيننا بالكشف عن مواطن أصالته ، وعن كفايته ، وثورته على مثالب عصره

السياسية والإنسانية ، ورهف شعوره تجاه ما ترخر به الإنسانية والمجتمع من شرور ، وأنه يجد في جذارته وإخلاصه لفننه وإنسانيته عزاء عن كل شيء ، وبخاصة في وجه خصومه الكثر الذين عاشوا لأنفسهم في ظلام الأثرة وظلمها ، لا يخلصون لسوى منافعهم الخاصة . وقد كان لابروير رائداً في كثير من آرائه الاجتماعية الثورية التي أشرنا إلى أهمها ، وبها سبق عصره ، كما سبق في بعضها عصر الثورة الفرنسية نفسه ، وتجلت أصالته إلى جانب إفادته من سابقه ومعاصريه . وقد أخلص لإنسانيته ، فعاش عصره وتجاربه ، وبقدر تعمقه فيهما تجلت آيات إنسانيته وخلوده . وهو مخلص لفننه بقدر إخلاصه لرسالته الإنسانية ، حتى رأينا من يراه في أسلوبه وصوره مثالا فريداً في الأدب الفرنسي كله .



ويضيق بنا المقال لو شرحنا وجوه تأثيره ، وذكرنا أسماء من حاكوه في الأدب الفرنسي والآداب الأخرى وحتى لو سردنا - مجرد سرد - الترجمات الكثيرة لكتابه في حياته وعلى توالى العصور ، فهذا يستحق بحثاً على حدة . على أن محاكاة لابروير صعبة كما قال هو ، محذراً منها بعض من حاكوه من معاصريه ، ذلك أنه إنما يستملى قلبه ومزاجه وحدة شعوره . ولقد لقي لابروير نوعاً من الإنصاف لدى جمهوره وبعض المخلصين لإنسانيتهم وفكرهم من كتاب عصره ، فبلور إمكانيات متفرقة ، وغذاها مخلصاً ببذور نمت وترعرعت في القرن اللاحق ، فاثرت في الثورة الفرنسية التي كان له فضل في التهيد لها دون أدنى ريب . وقد أدى بذلك رسالته الإنسانية والفنية على خير ما استطاعه إنسان عاش في مثل ملابساته .